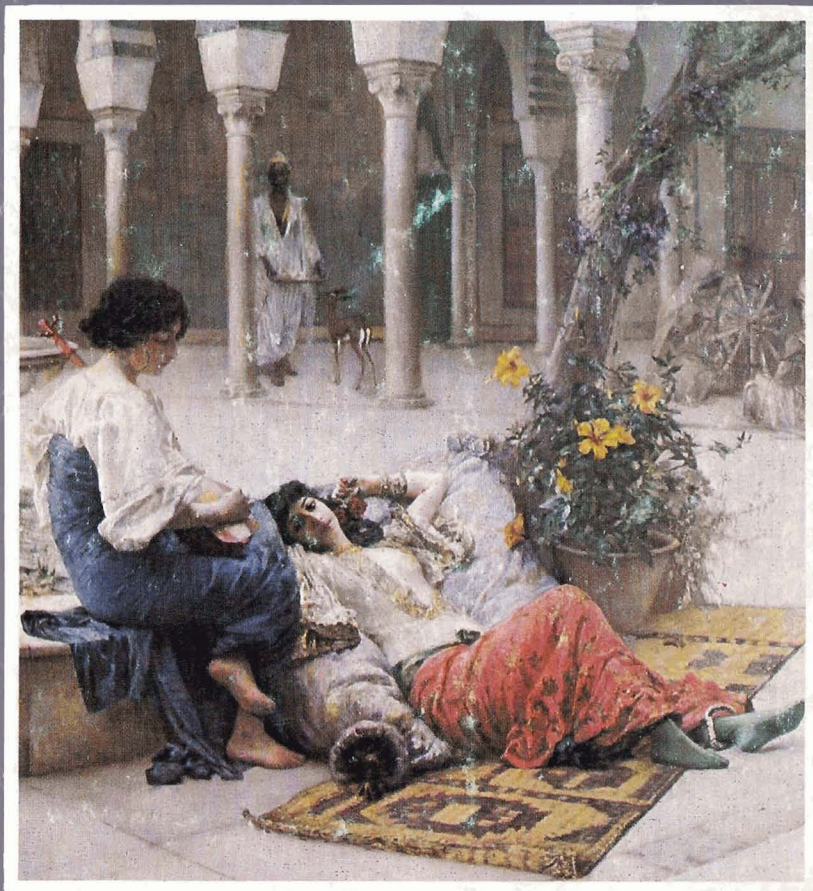


رناقباني
أساطير أوروبا عن الشرق
لَفِقِّ تَسْدُ



ترجمة: د. صباح قباني

تدور هذه الدراسة حول أساطير عن الشرق العربي والإسلامي احتلقتها العرب ولا يزال يبعث في تسميها. وتأتي أهمية هذه الأساطير من أنها كانت أساس القبول العصرية والخسبية الجاهرة التي وضعت في أوروبا / ما بعد الصليبيات على يد الرحالة والشعراء والمصورين ذوي الخيال المتحيز والمعروض، إلا أنها راحت في ظل امبريالية القرن التاسع عشر تتخذ شكلاً مبهجاً ومطمئناً باعتبار أنها كانت شيئاً جيواً للامبريالية ومحططاتها. فإذا استطاع الأوروبيون تصوير شعوب الشرق بأما حاملة، وحاملة، وفاسقة، وليس لها قدرة ذاتية على التطور والتقدم، أمكن لأوروبا أن تسرر تدخلها وتسيطر سيطرتها على هذه الشعوب.

ولاشك أن التوسع الاستعماري والاستغلال الاقتصادي يحتاجان، من أجل أن يمتد بسهولة، إلى عملية حمل تطهرهما وكأما ليسا سوى رسالتي حصار وتمديد.

لقد قام رحالة العهد الفيكتوري برحلاتهم وهم يعملون بالدعم الرسمي، بالرغم من تظاهرهم بغير ذلك، وسرعان ما استطاعوا، وهم بكامل الوعي والإحساس بالواحد نحو الامبراطورية، أن يسبحوا أيضاً من أقاصيص أصبحت فيما بعد هي الرؤية الأوروبية للشرق. ومما بلغت المظهر أنه كان هذه الأقاصيص تمتاز واضحة التشابه وأن قاسماً مشتركاً جمع فيما بينها رغم اختلاف شخصيات الكتاب الذين وضعوها.

ولا يزال العديد من كتاب الرحلات، من أمثال (تيسيمر) و (كاثيبي) و (نيول)، ماصين في تصوير ذات الشرق الذي طالما سيطر على الخيال العربي، ولا تزال الأساطير حوله ممتعة في الترسخ في وقتنا الحاضر لعلايات سياسية محصنة متما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر.

إن هذا الكتاب يقدم تحليلاً مستفيضاً للصورة الخيالية للشرق التي خلقتها أوروبا لنفسها حسناً وضعها كتاباً ورثتها رساموها في لوحات هبية عادةً موحته إلى الظهور في السنوات الأخيرة بشكل يثير الدهشة والاستعجاب.



دمشق — أوتوستراد المزة

هاتف ٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١

تلكس ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلامدار

TLASDAR

ربع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

أساطير أوروبا عن الشرق

آفق ساند

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثالثة

١٩٩٣

زنا قباڤي

أساطير أوروبا عن الشرق

آلفق كسئل

ترجمة: د. صباح قباڤي

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

« من الطبيعي أن يعمروا في قياسنا بالمعايير ذاتها التي يقيسون بها أنفسهم... ولكن عندما نُصوِّر وفق نماذج لا تمتُّ إلينا بصلة فإن ذلك لن يخدم إلا غاية واحدة: هي أن نغدو مجهولين أكثر، وأقل حرية، وأشدَّ عزلة».

غابرييل غارسيا ماركيز*

Gabriel Garcia Marquez

(*) من خطابه في استوكهولم حين تسلّم جائزة نوبل (للآداب لعام ١٩٨٢).

المعنوان الانكليزي للكاتب

Europe's Myths Of Orient Devise And Rule

صدر عام ١٩٨٦ عن دار (ماكميلان) البريطانية وعن دار
(الديانا يونيفرستي برس) الأميركية.

مقدمة المؤلفة للطبعة العربية

هذه الدراسة كُتبت في الأصل للقارئ الغربي لتكون إسهاماً في تقويض الصورة التي أرسختها في أعماقه منذ القرون الوسطى كتابات الرحالة والمغامرين الأوروبيين عن الشرق والعرب والإسلام. فهؤلاء الرحالة، وبخاصة مَنْ دعموا رؤى عصر الامبريالية، اكتسبوا في بلادهم أبعاداً أسطورية جعلت أي محاولة في الغرب لتكذيب رواياتهم عن الشرق وأهل الشرق إثماً كبيراً وخيانة وطنية.

وقد حرصتُ في هذه الدراسة على أن أكشف للقارئ الغربي كيف ازدري هؤلاء الكتاب رجال الشرق ونساءه وحقروهم مثلما ازدروا المستضعفين في المجتمع الفيكتوري وحقروهم. فالنساء مثلاً كنَّ في «المؤسسة الفيكتورية» مجموعة هامشية تماماً مثلما كانت الأجناس الأخرى مجموعة هامشية في نطاق «المؤسسة الاستعمارية». وهكذا لم يَرِ الكتاب والمصورون الاستشراقيون في المرأة الشرقية سوى أنها بعضٌ من متاع امبراطوريتهم، فهي جارية أو حظية أو راقصة أو مومس أو قاتلة أو غاوية، ولا شيء غير ذلك.

وفي محاولتي لنزع هالة القداسة التي أحاطت بهؤلاء الكتاب، ولاسيما (بورتون) و (لورنس)، كان لا بد أن أسرد للقارئ الغربي البذاءات التي انطوت عليها كتاباتهم ورسائلهم والتي لم تكن تشف عن عقول ثقافت من الباحثين والدارسين، حسبما صوّروا أنفسهم، بل كانت

۸۷۶۱ / ۱۳۹۲ - ۱۳۹۳

کتابخانه

۱- کتابخانه عمومی شهر تهران
 ۲- کتابخانه مرکزی وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی
 ۳- کتابخانه تخصصی تاریخ و جغرافیا
 ۴- کتابخانه تخصصی ادبیات و فلسفه
 ۵- کتابخانه تخصصی علوم انسانی
 ۶- کتابخانه تخصصی علوم اجتماعی
 ۷- کتابخانه تخصصی علوم پزشکی
 ۸- کتابخانه تخصصی علوم ریاضی و فیزیک
 ۹- کتابخانه تخصصی علوم کامپیوتر و فناوری اطلاعات
 ۱۰- کتابخانه تخصصی علوم هنر و معماری

۱۱- کتابخانه تخصصی علوم ورزشی
 ۱۲- کتابخانه تخصصی علوم حقوقی
 ۱۳- کتابخانه تخصصی علوم مدیریت
 ۱۴- کتابخانه تخصصی علوم اقتصاد
 ۱۵- کتابخانه تخصصی علوم مهندسی
 ۱۶- کتابخانه تخصصی علوم کشاورزی
 ۱۷- کتابخانه تخصصی علوم دامپزشکی
 ۱۸- کتابخانه تخصصی علوم شیوه‌های زندگی
 ۱۹- کتابخانه تخصصی علوم باستان‌شناسی
 ۲۰- کتابخانه تخصصی علوم باستان‌شناسی

مقدمة

إنَّ مفهوم الرحلة، باعتبارها وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها، أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية من القوة السياسية. فالرحال يبدأ رحلته وتكون وراءه أمة ذات سلطان تدعمه بنفوذها العسكري والاقتصادي والفكري والروحي، ولذا نجده عندما يكتب يضع في حسابه جمهوراً خاصاً من القراء — ألا وهم أبناء وطنه، وأقران مهنته، وملكه أو راعي رحلته. ولا شك أن وجود هؤلاء نصب عينيه يؤثر على رؤيته ويجعله انتقائياً فيختار من المعلومات أنواعاً معينة أو يركّز على سمات دون غيرها لمجرد أن لها زينها في ثقافة أمته. كما أن مركزه الاجتماعي يساهم أيضاً في تلوين رؤيته تلك إذ غالباً ما يكون منحدرًا من طبقة مرفهة تتيح له أن يقوم برحلات عالية المستوى والتكاليف فيغدو بطبيعة الحال ممثلاً لمصالح وأنماط من التفكير أنشئ عليها.

والرحال الذي ينطلق من بلده القوي بحثاً عن الغرائب في بلاد أقل قوة نجد نموذجاً في العديد من الحضارات.¹ فالعالم الإسلامي فيما بين القرنين السابع والرابع عشر والذي كان يتألف من قوى عسكرية وسياسية يمتد سلطانها من إسبانيا حتى الصين، أرسل الرحالة، مبعوثين ومستكشفين، ليأتوه بالمعرفة ويثروا مستودع المعلومات السياسية لديه. وبازدياد قوة

قرودهم من ذهب، ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب
للبيع»⁷.

أما المقدسي فجعل الواقواق في الهند، وقال إن اسمها
جاء من شجر فيها له أثمار ذات أفواه تنادي «واق ! واق»⁸.
وهكذا اعتبر الرحالة الذين وصفوها على تلك الصورة
بالاستناد إلى ما سمعوه أو ما تخيلوه، اعتبروا هذه الواقواق أرضاً
موغلة في البعد وتقع إلى الشرق دائماً⁹. ومن هنا أصبحوا كلما
اكتشفوا أرضاً جديدة تباعدت الواقواق ببطء عنهم، وظلت
دائماً «تلك الجزيرة التي لم تكتشف بعد والتي تقوم عند الأفق
الشرقي».

وكما هو واضح فإن ذلك كله لم يخرج عن نطاق
المبالغات الجغرافية والطرائف المسلية حسنة النية. أما ايقاع
الأذى فبدأ يشيع عندما راحت جماعات متسلطة وقادرة تلتفح
صورة عن «الآخرين» من البشر وتصنّفهم في نماذج نهائية
ترسمها هي ولا تمت إلى النماذج الطبيعية بشيء. ويقدم المؤلف
(بليني Pliny) في كتابه (التاريخ الطبيعي) نموذجاً مبكراً
للنصوص ذات النزعة العرقية، فهو يزخر بالحديث عن عادات
«أكلة لحوم البشر»، وجماعة الآستومي Astomi «التي تعتمد
حياتها على شم التفاح»، وجماعات السيوبود Sciopods وأهل
الأمازون والبراهمة. ولذلك كان أساس شعبية كتاب (بليني)
في أوروبا / العصور الوسطى أنه رتب وأكد كتابةً المعتقدات
السائدة حينئذ عن أجناس غامضة «من الناس». وقد تكرر
الأسلوب نفسه في عصر النهضة حين وصفت روايات
الرحلات أسفاراً تتسم بالغرابة المتعمدة.

1363 عامه من سنة 1492 في كتابه "التصانيف
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 التي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500

10: «التجارب السبعة» في سنة 1492 في كتابه
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500
 الذي كتبت في تاريخه من سنة 1492 الى سنة 1500

الاستعمار في القرن الخامس عشر :
 يقول بيبس ما لنت ان تكررت فيما بعد خلال عهد
 كريستوفر كولومبوس في القرن السادس عشر كتب
 مؤرخا للبحر والشمس . وحين وصف (بيكافيتا) رحلة
 اكتشافه « اننا ايضا » رسول حقاوة مبنوية » بل اصبح
 خديعة ، وكان عدده الخراب على تساؤلات دور حول
 شخصيته بقوة على الخيال الشمني ، فقد عرف الناس ياق
 Marco Polo (بيكافيتا) او بحال بي (بيكافيتا) ان يعرف
 وسطع الرجال ، سواء ان كان على (ماكو پولو

و ١٥٠٤ مات ثلاثة ملايين أميركي جنوبي نتيجة أعمال
« التهدئة » التي مارسها الاسبان.¹¹

إن اختلاق التماذج العرقية والتأكيد على حكاية الهمجية
كان شيئاً حيويّاً بالنسبة لمفهوم العالم الاستعماري . ففي أميركا
مثلاً كانت ثمة خطة منهجية لتصوير الهندي خاطفاً للنساء ،
وقاتلاً للأطفال ، وجامعاً للرؤوس البشرية ، وذلك من أجل
تغطية وحشية الرجل الأبيض ضد هذا الهندي.¹² ومن هنا
كتب (تيودور روزفلت) في عام ١٨٩٦ :

« كان المستعمرون والرواد الأوائل يشعرون في أعماقهم
أن الحق هو إلى جانبهم ، وأن هذه القارة العظيمة لا يمكن أن
تترك لعبث الهنود المتوحشين ».¹³

وبعد أن اطمأن الرجل الأبيض إلى أنه امتلك ناصية
الأرض المفتوحة أصبح بمقدوره أن يتخلى ببطء عن فكرة الشر
الثابتة التي ألصقها بالسكان الأصليين . ولذلك رأينا كيف
امتزج « الشعور بالذنب » الأميركي و« الرومانسية الأوروبية »
معاً ليولّدا صورة ما أسماه « المتوحش النبيل » . بيد أن التناقض
ظل قائماً بين تلك الصورة المتخيلة للهندي ، وبين ما كان
يواجهه هذا الهندي على أرض الواقع من عمليات إبادة .
فالمتوحش هو نبيل طالما كان ينتمي إلى جنس بشري هو في
طريق الانقراض . ولذلك اعتبر آخر من بقي من قبيلة
(الموهيكان Mohicans) نبيلاً ومهيباً لأنه كان بالفعل آخر من
بقي من تلك السلالة . وبالرغم من بعض الشهامة في كتابات
(فينيمور كوبر Fenimore Cooper) فإنها تبقى شهامة
محدودة وتظل تتماشى مع الرواية العنصرية القديمة ، فالهنود

بعيدة والذي كان أحد ظواهر التعصب الأعمى لدى أوروبا/ القرون الوسطى؛ فهي عندما رأت في الدولة الإسلامية «الخصم اللدود» انبرت تمارس أسلوب الهجوم العنيف القائم على التعصب والعداء من أجل الحد من أي نفوذ قد تكتسبه هذه القوة المنافسة. ومن هنا أصبح يُنظر إلى الإسلام على أنه «الغناء للمسيحية»، وأن رسوله محمداً عليه السلام هو «عدو للمسيح»، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالماً مضاداً لأوروبا¹⁸ وبذلك أصبح موضع الشك والريبة. وهكذا جابهت أوروبا المسيحية الشرق الإسلامي مجابهة ثقافية ودينية وسياسية وعسكرية، ومنذ ذلك الحين تقرر مجرى العلاقة بين الشرق والغرب. فأوروبا/ ما بعد الحروب الصليبية لم تتخلص مطلقاً من عدائها الذي شحنت به نفسها إبان تلك الحروب، ولهذا كان من السهولة بمكان أن تتحول رغبتها القديمة في الوقوف في وجه خصمها الإسلامي إلى تصميم على السيطرة، هذا التصميم الذي كان الأساس النفسي للامبرياليين منذ نابليون. وانطلاقاً من هذه النفسية، كان أول ما قام به الجنرال الفرنسي (غورو Gouraud) بعد أن فتح دمشق عام ١٩٢٠ هو أنه توجه فوراً إلى حيث يرقد صلاح الدين الأيوبي، الذي هزم الأوروبيين خلال الصليبية الثالثة، وحين وقف أمام ضريحه خاطبه مزهواً: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين!». ¹⁹

وتتضمن الروايات الأوروبية عن الشرق تركيزاً متمعداً على تلك السمات التي تجعل هذا الشرق مختلفاً عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الذي «لا صلاح له». وكان في هذه الروايات الأوروبية التي تصف ذلك (الآخر) مقولتان ملفتتان للنظر: الأولى هي الإلحاح على

יתחייב להוציא את המעורבים מן המעורבות
 ולמנוע מהם להשתתף יותר ויותר
 בהנהלת המדינה. דבר זה יעשה
 באמצעות חוקים ודרכים אחרות.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.

יתחייב להוציא את המעורבים מן המעורבות.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.
 הדבר יבוצע באופן שימנע
 מהמדינה להפוך למדינה
 שבה המעורבים הם המעורבים.

ومع أن القرن الثامن عشر أنتج أيضاً أدب رحلات يتّسم ببعض الرؤية إلا أنه ظل لوناً تعليمياً من نوع سرد الحكايا. وقد أملى ذوق الكلاسيكية الجديدة Neoclassical إلى حد كبير على رحال هذا القرن نوعية ما كتب،²⁰ إذ إنه التزم بالتقليد العام المقتصر الوصفية أكثر من التزامه برواية السيرة الذاتية، وهكذا عمد إلى وصف المناظر وتفادى وصف أحاسيسه الذاتية بدقة خشية أن يقال عنه إنه رحال «عقيم» وهي التهمة التي ألصقها الكاتب ستيرن Sterne بالرحال يوريك Yorick. لذلك لم تتمكن قصص القرن الثامن عشر من أن تنافس في طموحاتها تلك التي أنتجها القرن التاسع عشر حيث أصبحت الرؤية امبريالية تماماً.

فرحال القرن التاسع عشر أصبح يهتم بالمنظر الطبيعي فقط عندما يكون بمثابة خلفية تخدم مسيرة روايته. فهو «بطل الرحلة»، وليس مجرد راويها، وكان ينتهز كل فرصة ليتحدث عن الذات. فالأنا المقوتة في النبوة الكلاسيكية أمكن تكييفها لتتلاءم مع التمجيد الفيكتوري للفرد. لقد أضحى الرحال هو الصليبي، والبطل، والجندي المسيحي؛ وسرعان ما اتسعت شهرته وراحت تأخذ أبعاداً أسطورية مثلما حدث لجوردون Gordon ولورنس Lawrence. وكانت أية محاولة لتكذيبه أو زعزعة الثقة بما يقول تعتبر إثماً كبيراً، فمثلاً حين انتقد (ويلفرد سكاون بلانت Wilfried Scawen Blunt) بطريقة متميزة حماقات (جوردون) قوبل باستياء أبناء وطنه لأنهم رأوا في هذا النقد عملاً «غادراً وجباناً». وعلى كل حال، لم تكن الذات الأسطورية للرحال سوى محصلة كل ما حمله معه من ثقافة، ونزعات، ومعتقدات، والكثير من التحامل، والخيال العنصري، وكانت كلها تتماشى مع قرن الرحالة الامبرياليين.

فيما بعد يساوي بين الثقافات والأجناس إلا أن بداياته كانت غالباً ما تدغدغ زهو الأوروبي بنفسه وتُدخل في روعه بأنه هو « ذروة التفوق بين أجناس البشر الأخرى » ، وأن تلك الأجناس هي « أدنى مرتبة » منه . وكان يقيس مقدار تدنيها بمقدار اسوداد بشرتها ، « وطالما أنها تندرج في أدنى مراتب ذلك المقياس » الذي توهمه ، فإنها « تشارك الحيوانات في الكثير من صفاتها التي كانت حرارة الشبق الجنسي واحدة منها » . ومن المفيد أن نلاحظ كيف تردد تشبيه تلك الأجناس بالحيوانات في العديد من الكتابات . فوصف (ياغو) لعطيل في المسرحية الشكسبيرية بأنه « حصان متوحش » ما كان إلا بداية مهذبة لسلسلة من النعوت المحقرة التي ما لبث أن ابتكرها الفيكتوريون .

وكان ثمة تداخل بين علم الانتروبولوجيا والرواية وقصص الرحلات . فمن الملفت للنظر أن الرؤية العنصرية للأجناس الأخرى كانت واحدة في تلك الأنواع الثلاثة والمختلفة من الكتابة . إن رواية « كنوز الملك سليمان » مثلاً التي كتبها (رايدر هاغارد Rider Haggard) عام ١٨٨٥ وبيع منها (٣٠) ألف نسخة في السنة الأولى من نشرها والتي كان يقرؤها طلاب المدارس الخاصة (الذين أصبحوا فيما بعد مدراء الامبراطورية) ،²² إن هذه الرواية خلّدت كل الأفكار العرقية عن الإنسان البدائي وأبرزت « تفوق العنصر الأنكلو — ساكسوني » . كما أن رؤية (بادن — باول Baden-Powel) للحركة الكشفية التي أسسها استعارت الكثير من الوصف الانتروبولوجي لطقوس الشعوب البدائية وذلك من أجل ابتكار تجارب مشابهة للشباب الأوروبي الذي

الأسطورة التقليدية عن الشرق مع أسطورة جديدة أخرى ألا وهي أسطورة الرحالة أنفسهم وهم في الشرق . وتعتبر رحلة (كنگليك Kinglake) الكبرى إلى الشرق التي وصفها في كتابه (يوثن Eothen) نموذجاً لأهمية الذات عنده : فهو يرى نفسه « سيداً بين خدم » ، وأن الشرقي ما هو إلا « مومياء ناطقة » ،²⁴ وأنه « مدعاة للتسلية أحياناً لكنه مدعاة للازدراء دائماً » . وكان هذا الشرقي عند (كنگليك) « ذليلاً لدرجة أن احترامه يزداد للأوروبي الذي يهينه » :

« ... يبدو أن الآسيوي يكنّ شعوراً بالاحترام العميق ، الذي يصل غالباً إلى درجة العبادة ، لكل من اساءوا إليه بقسوة عنيفة .. ولهذا كنت أرى كيف أن استسلامه وانصياع عقله كانا بلا حدود أمام فكرة القوة » .²⁵

ويروي (كنگليك) لقرائه أنه قابل حاكماً شرقياً يكنّ « إعجاباً شديداً بالانكليز لمجرد أن قبطاناً انكليزياً هدده مرة بالهلاك » .²⁶

وقد أصبح هؤلاء الرحالة في أغلب الأحيان خالقين صور أنفسهم كأبطال في العالم الاستعماري وينادون بانتهاج الصرامة في الحكم من أجل أن يتخلصوا من عقدة تفاهتهم الشخصية . فإذا ما حقروا أهل المستعمرات فإن منزلتهم سوف تبدو كبيرة بالتباين . وإن وصف (بورتون) لأحد أبناء السند يلخص هذه النظرة :

« ... إنه كسول ولا مبال ، وقذر ، ومدمن ، ومعروف بجبنه في أوقات الخطر ، في حين أنه يصبح وقحاً عندما لا يكون ثمة ما يخشاه ، وليس لديه أية فكرة عن الصدق والأمانة » .²⁷

... كما ذكرنا في كتابنا *«الأساطير اليونانية»* ...
 ... في كتابنا *(Curzon)* ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...

...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...
 ...

28. «...»

...
 ...

...:

...
 ...
 ...
 ...

بالفعل . فالقوة تحتاج دائماً إلى المعرفة . ومن هنا تأطرت الثقافة الأوروبية ضمن صورة مشوهة عن الشرق باعتبار أن الذوق المهيمن وغريزة الأسطورة كانت لهما الغلبة في نهاية المطاف .

إن كتابة أدب الرحلات لا بد أن تنسل في طياتها العلاقة الاستعمارية . فإذا كان الادعاء السائد هو أن المرء يسافر من أجل أن يتعلم ، فإن الحقيقة هي أنه (في ظل تلك العلاقة) يسافر ليمارس السلطة على البلاد والنساء والشعوب . ومن المؤلف دائماً أن يقال بصدد الاستشراق أن الغرب يعرف عن الشرق أكثر مما يعرف هذا الشرق عن نفسه الأمر الذي من شأنه أن يخلق مجرى محمداً سلفاً للكتابة وهو ما يؤدي إلى تقييد المراقب الغربي بل وجعله في كثير من الحالات أسير ماقرأ ، أي أن الأمر يصبح وكأنّ خيال الرحال ، من أجل أن يبدع ، لا بد له أن يستعين بالموروثات الفكرية والنصوص السابقة التي أفرزها الغرب . ولهذا يصبح الرحالة الغربي بالضرورة مرتبناً لسلسلة طويلة من الاستعارات العتيقة والمفاهيم القديمة . لقد عمد الكاتب (شاتوبريان Chateaubriand) مثلاً قبل قيامه برحلة الحج إلى بيت المقدس إلى تهيئة نفسه بقراءة أكثر من مئتي كتاب عن الأرض المقدسة ، وبذلك كان كمن قام بالرحلة قبل أن يرحل بالفعل . إن هذا الاعتماد الثقافي على الغير كان من شأنه أن يجعل من الشرق مجرد « كليشات » أدبية . وهكذا لم يكد (شاتوبريان) يصل فعلاً إلى بيت المقدس حتى وجد نفسه مثقلاً بموروثات الاستشراق ومرهقاً بقيود هذه اللغة الموروثة :

« ... هنا أراي أعاني من حيرة حقيقية فإذا ما أردت أن

نشيطين وتزينها عجائب الدنيا من المعابد والأبنية الضخمة، أصبحت الآن خاوية وحيدة أو تردّت، بسبب سوء الإدارة ووحشية العقيدة الإسلامية، إلى حالة من الهمجية كما همجية الحيوانات البرية التي ترتع حولها، وكنت كلما تأملتُها أحس بالغصة تعنصر قلبي»³¹.

لقد كان العداء للإسلام والمسلمين جزءاً لا يتجزأ من البنية العقلية للرحالة الغربيين. وقد كتب (جيمس الروي فليكر James Elroy Flecker) الذي لا تزال الصورة التي رسمها عن العرب تسيطر على الخيال الشعبي الغربي، يقول:

«.. إنني أكره الشرق، ومع ذلك فقد كتبت عنه أفضل القصائد».

وهكذا نرى أن الخيال والواقع هما شيئان مختلفان بشكل بين في العقل الغربي.

لقد حقق «الشرق» كل الاحتياجات التي أرادها الأوروبي منه. فكلمة الشرق تثير فوراً تداعيات كثيرة في ذهنه مثل (المسلم، المحتال، ألف ليلة وليلة، الصحراء، الرقص، الحظية، الحملة الصليبية، الانجيل) الأمر الذي كان يتطلب أن يكون المرء صاحب عقل يتصف بالوعي والتصميم كيما يستطيع أن يرى الحقيقة بعيداً عن هذا الطوفان من الإيحاءات المثيرة. فمما لا شك فيه أنه ليس كل ما صوّر به الشرق كان يتوخى الأذى، فثمة عقول أوروبية استطاعت أن تكتشف الروابط الإنسانية المشتركة بين الشرق والغرب. من هؤلاء كان (بلانت Blunt) الذي دافع بقوة عن حقوق الشرق حيال أمته هو. كما كان هناك العديد من الرسامين مثل (فرومانتان

